المحاضرة الأولى/ مفهوم الثقافة:

قبل الحديث عن النقد الثقافي لا بد لنا أن نبين قبل ذلك المفاهيم المرتبطة بالثقافة عموما، لما لها من أهمية ضمن هذا النشاط المعرفي، فالتحولات التي عرفتها مفهوم الثقافة كان عاملا أساسيا في الانتقال من الاهتمام بالنقد الأدبي إلى تأسيس للنقد الثقافي وفي هذا الصدد يقول الباحث الجزائري **سليم حيولة** أستاذ جامعة المدية في مقال له تحت عنوان "**الفكر المقارن الجديد: التحول نحو النقد الثقافي**" المنشورة ضمن الكتاب الجماعي الموسوم بـ: **العين الثالثة** «لا يمكننا فهم حقيقة النقد الثقافي دون محاولة فهم المدلول الحقيقي لكلمة ثقافة وخصوصياتها ومختلف معانيها، والمعاني المتعلقة بها(...) فالثقافة كلمة معقدة يميزها الصراع واستعمالها يساهم في استبعاد الآخر والهيمنة عليه أكثر من كونها تسهم في تطور الإنسان»[1]، فما مفهوم الثقافة وماهي أهم التحولات التي عرفتها هذه المفردة وهل هناك فرق بينها وبين مفهوم الحضارة، كلها مفاهيم سنحاول أن نعرج عليها قبل الحديث عن النقد الثقافي ومفهومه.

إن الحديث عن مفهوم **الثقافة** هو حديث عن لفظ قديم كان يعني قبل القرن السادس عشر **العناية الموكولة للحقل والماشية**، وفي بداية القرن السادس عشر لم تعد هذه المفردة ترتبط بهذه الدلالة بل أصبحت تعني **فلاحة الأرض** وبعدها تطورت الدلالة السيمانطيقية لهذا المفهوم في القرن الثامن عشر وانتقلت من مجال الفلاحة والزراعة إلى مجال الفكر محاكية في ذلك نموذجها اللاتيني cultura وفي هذا الصدد يقول تيري إيجلتون Terry Eagleton في كتابه "**فكرة الثقافة**" «**كانت كلمة ثقافة تعني أول الأمر عملية مادية كاملة، وأضيفت آنذاك مجازيا في غير موضعها على شؤون الروح،**

---

[1] – سليم حيولة: الفكر المقارن الجديد: التحول نحو النقد الثقافي لكشف بنية الثقافة المعاصرة في ثناياها المتقابلة، ضمن كتاب العين الثالثة: تطبيقات في النقد الثقافي ومابعد الكولونيالية، مجموعة من المؤلفين، تق: وحيد بن بوعزيز، دار ميم، الجزائر، ط1، 2018، ص 12.

وهكذا ترسم الكلمة في دلالتها السيمانطيقية معالم نقلة تاريخية إنسانية خالصة من حياة الريف إلى حياة الحضر، ومن تربية الحيوانات الداجنة إلى بيكاسو»[2] وقد تم في نفس الفترة التاريخية أي أثناء القرن الثامن عشر إدراج معنى مفردة ثقافة في قاموس الأكاديمية الفرنسية لأول مرة وأصبحت تعني خصوصا مع مفكري الأنوار(كانط، ديكارت، هيجل....) **خاصية مميزة للجنس البشري**، فقد كانت بالنسبة إليهم **جملة المعارف التي راكمتها الانسانية خلال تاريخها** ومنذ هذا التعريف بقيت تقريبا كلمة ثقافة مرتبطة بأيديولوجيا الأنوار إذ اقترن اللفظ بأفكار **التقدم والتطور والتربية والعقل** وتجدر الإشارة أن مفردة حضارة لم تخرج في مضمونها التعريفي أيضا في تلك الفترة عن معنى الثقافة، فقد كانت كلمة حضارة مرتبطة بنفس المفهوم الذي يجسده مفهوم الثقافة، فكلاهما ينتميان لحقل دلالي واحد، ويعكسان التصورات الأساسية المرتبطة بفكر تلك المرحلة، ولكن مع ذلك تحرر مصطلح حضارة من المعنى الفردي المرتبط بالثقافة عموما واصبح يدل على منحى جديد فرضه المفكرون البرجوازيون على الإنسانية لتصبح هذه الاخيرة مفردة يتوجب عليها ان تمتد لكل الشعوب التي منها تتكون الإنسانية، وحتى في المانيا ارتبطت كلمة ثقافة بالطبقة البرجوازية، فكل ما هو متحضر يكون عادة من سمات النبلاء والارستقراطيين وكل ما هو مثقف يدل على الرقي والتطور وهو مرتبط عادة بالبرجوازيين، وبالتالي فالثقافة جملة من المنجزات الفنية والفكرية والاخلاقية التي تكون تراث أمة يعتبر مكتسبا بصورة نهائية وتؤسس لوحدتها. وفي ما بين القرن الثامن عشر والتاسع عشر بقيت الثقافة تحمل نفس المعنى على الرغم من التأثير الالماني فقد كانت الغلبة لفكرة الوحدة على حساب التنوع. وللتفصيل أكثر في مفهوم الثقافة الذي يعتبره وليامز واحدا من أصعب المفاهيم تحديدا حيث يقول: «الثقافة مفهوم متعدد الأوجه؛ الأمر الذي يفاقم صعوبة اعتماد مفهوم موحد بالغ التحديد والصرامة بشأن الثقافة»[3]

---

[2] – تيري إيجلتون: فكرة الثقافة، تر: شوقي جلال، المشروع القومي للترجمة، مصر، ط1، 2005، ص 14.

[3] – تيري إيجلتون: الثقافة، تر: لطيفة الدليمي، دار المدى، ط1، 2018، ص31.

ولهذا سنحاول أن نقدم مجموعة من التعريفات الخاصة بها لدى كل فئة اهتمت بهذا المفهوم وتطوراته وسنركز على المفاهيم التي استفاد منها النقد الثقافي وسنتحدث أولا عن مفهوم الثقافة عند علماء الأنثروبولوجيا وبعدها عند علماء الاجتماع وكذا مفهومها عند الماركسيين خصوصا ريموند وليامز وتيري إيجلتون وسنحاول الوقوف في الأخير عند رأي توماس سترينز إليوت في تعريفه لمفهوم الثقافة.

1- مفهوم الثقافة عند علماء الأنثروبولوجيا:

يعد مفهوم **إدوارد برينيت تايلور** للثقافة من بين أقدم المفاهيم التي صاغها حقل الأنثروبولوجيا، فقد قدم في كتابه **الثقافة البدائية** سنة **1871م** مفهوما بقي راسخا ليومنا هذا عن الثقافة، فالثقافة في نظره «**هي هذا الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الانسان بوصفه عضوا في المجتمع.**» إن الثقافة عند تايلور بهذا التعريف كما يوضح دنيس كوش في كتابه **مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية** تعبر عن كلية حياة الانسان الاجتماعية، فهي تتميز ببعدها الجماعي، وهي أيضا في نظره مكتسبة ولا تتأتى من الوراثة البيولوجية[4]، وعلى الرغم من تصدر تايلور في وضع مفهوم للثقافة إلا أنه لم يكن سباقا في استخدام هذا المصطلح، فقد سبقه لذلك الكثير من الاثنولوجيين على رأسهم غوستاف كلام Gustave Klemm لكن يبقى هذا المفهوم مهم جدا خصوصا في النقد الثقافي والدراسات الثقافية.

وبعد تايلور ظهرت العديد من المفاهيم المرتبطة بالثقافة نظرا للتطور الكبير الذي لحق بميدان الأنثروبولوجيا ويعد كليفورد غيرتز من بين أبرز المثقفين الذين طوروا هذا

---

[4] – دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2007، ص 31.

الحقل المعرفي، فقد ساهمت كتابات هذا المثقف حول مختلف المناطق والشعوب التي كان يدرس عاداتها وتقاليدها وقوانينها أو بلغة إدوارد تايلور ثقافتها، في تطوير حقل الانثروبولوجيا، وتخليصها من تلك الرؤى التي كانت تحصرها فقط في ماضيها الاستعماري، وشكل كتاب "**تأويل الثقافات**" الذي كتبه غيرتز بغرض تبيين منهجه الدراسي فيما سماه بـ: "**الأنثروبولوجيا التأويلية**" **أو** "**الرمزية**" قفزة نوعية في هذا المجال.

في مقدمة هذا الكتاب يعترف غيرتز أن النقطة التي تجمع ما يود هذا الكتاب طرحة هو "الثقافة"، والمفهوم الذي يتبناه غيرتز هنا لمفهوم الثقافة يختلف عن ما طرحه إدوارد تايلور في مختلف كتاباته، وصاحبا كتاب "**الثقافة مراجعة نقدية للمفهومات والتعريفات**" كروبر وكلايد كلوكن، اللذان اعتبرا الثقافة "**تجريدا مأخوذا من سلوك**" وليس "**سلوكا**" كما يرى تايلور، وبما أن التجريد لا يمكن أن يكون موضوعا للعلم كما جاء في مقدمة كتاب "**تأويل الثقافات**"، يصبح إذا من الصعب الوقوف عند مفهوم محدد لهذا المصطلح الزئبقي الذي صنعه الانسان، وهو الآن تحت رحمته، نظرا لما ينتجه من تنميطات يستغلها من أجل الهيمنة والسيطرة، وهو ما حدث في القرن التاسع عشر، عندما اكتسح الاستعمار الأوربي بقاع العالم الثالث، بمختلف الأسلحة المادية منها والثقافية، فتحت «شعار دراسة الثقافة، ثقافة البلدان المجهولة، ثقافة الشعوب الأخرى، ظهرت نوايا فرض ثقافة الدارس، أو ثقافة السلطة التي ينتمي إليها أو يعمل من أجلها في بعض الأحيان. ومن هنا ظهرت إذا بوادر التمييز بين ثقافة الانسان الأبيض، وبين سائر الثقافات»[5].

إن الأساس الذي ينطلق منه غيرتز في تحديده لمفهوم الثقافة هو اتكاءه على ما قدمه السيسيولوجي ماكس فيبر حيث يقول «إن مفهوم الثقافة الذي أعتنقه، والذي ستحاول المقالات الآتية إيضاح نفعيته، هو بالأساس مفهوم سيميائي(semiotic)، وانا

---

[5] – جيرار لكلرك: الأنثروبولوجيا والاستعمار، تر: جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط1، 1990، ص06.

مقتنع مع ماكس فيبر أن الانسان هو حيوان عالق في شبكات رمزية، ننسجها بنفسه حول نفسه، وبالتالي أنا أنظر إلى الثقافة على أنها هذه الشبكات، وأرى أن تحليلها يجب أن لا يكون علما تجريبيا يبحث عن قانون بل علما تأويلا يبحث عن معنى»[6]،

02- الثقافة عند علماء الاجتماع:

تحرر دوركايم نوعا ما في مفهومه للثقافة وخرج من مفهومها الكلي الذي دعا إليه تايلور إلى النسبي فتفكيره في الثقافة لا يشكل كما يقول مجموعا موحدا. «لقد كان الانشغال المركزي لأعماله هو تحديد طبيعة الصلة الاجتماعية، فالحضارات تمثل بالنسبة إليه انساقا معقدة ومتضامنة»[7]. وقد كان تصور دوركايم للحضارة في كتبه –وتجدر الإشارة أن ورد في كتبه هو كلمة حضارة وليست كلمة ثقافة– مخالفا لمعاصريه في تحديد مفهوم الثقافة/الحضارة فقد ساهم كما يقول دنيس كوش في تخليص مفهوم الحضارة «مما كان يتضمنه إلى هذا الحد أو ذاك من المسلمات الأيديولوجية فقد سعى في كتابه مذكرة حول مفهوم الحضارة ألفها بمعية مارسال موص إلى تقديم تصور موضوعي ولا معياري للحضارة كان يتضمن فكرة تعدد الحضارات من دون أن يعني ذلك إبطال القول بوحدة الإنسان»[8]، ويبقى غياب مفهوم الثقافة عند دوركايم حدثا لا يمكن تأويله على أن دوركايم لم يهتم بهذا المجال فيكفي أنه اقترح تأويلات للظاهر التي تعيّنها العلوم الاجتماعية على أنها ثقافية.

هذا فيما يرتبط بمفهوم الثقافة عند علماء الاجتماع وعند الأنثروبولوجيين الذين اهتموا أكثر بمفهوم الثقافة وأسسوا لها في مختلف كتاباتهم ولهذا وكخلاصة لهذه التعريفات يصل إليوت في كتابه **ملاحظات حول تعريف الثقافة** إلى القول إن الثقافة في مفهومها

---

[6] – عليفورد غيرتز: تأويل الثقافات، تر: محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2009، ص71.

[7] – دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ص47.

[8] – المرجع نفسه، ص 44.

العام «**ما يجعل الحياة تستحق ان تحيا** وهي التي تجعل الأجيال والشعوب على حق حين تقول وهي تتأمل آثار مدنية بائدة: إن هذه المدنية كان تستحق أن توجد. فالثقافة بالنسبة لاليوت في جوهرها هي تجسيد لدين الشعب ... وقد سبق أن قررت في مقدمتي أنه لا يمكن أن تظهر ثقافة أو تنمو إلا وهي متصلة بدين»[9]. فالثقافة بالنسبة لإليوت ترتبط في جوهرها بالدين فلا ثقافة من دون ولا دين من دون ثقافة. ويمير عموما تيري إيجلتون في كتابه **فكرة الثقافة** بين الحضارة والثقافة كمايلي:

الحضـــارة	**الثـــقافة**
*– مجردة، مغتربة، مجزأة ميكانيكية، نفعية، عبد لايمان شديد بالتقدم المادي والتمييز بين الشعوب *– تشتمل على الحياة السياسية والاقتصادية والتقنية *– الحضارة في مجملها برجوازية	*– شمولية، عضوية، حسية، ذاتية الغاية، مدلول ديني وفني وفكري *– الصقل الفكري لجماعة أو لفرد وليس للمجتمع في شموله *– الثقافة لكل من الصفوة والعامة *– الثقافة لا تعني سردا كليا أحادي الخط عن الانسانية العالمية بل تنوعا في صور الحياة ذات النوعية المحددة

ويختلف رأي ريموند وليامز عن تيري إيجلتون في تعريفه للثقافة فهو يرى أن أي ثقافة لا يمكنّ أن تكون ماثلة بالكامل ومكتملة في الوعي إنها منفتحة النهاية، الثقافة

[9]– ت.س. إليوت: ملاحظات حول تعريف الثقافة، تر: شكري عياد، دار التنوير، القاهرة، ط1، 2014، ص ص36–37.

عنده شبكة من المعاني والأنشطة المشتركة ونامية باطراد في اتجاه تقدم الوعي، ومن ثم إلى إنسانية كاملة لمجتمع كامل والمشاركة هنا كاملة من جميع أبناءها نخبة وعامة.